النّص النّثري الأندلسي مقاربة حِجاجيّة بلاغيّة

زرزوريّة أبي القاسم ابن أبي الجدّ نموذجا

Andalusian prose text a rhetorical argumentative approach Zarzuriyya Abi Al-Qasim Ibn Abi Al-Jad as a model.

سالم حمامة*

فتح الله محمد ♣

تاريخ الإرسال: 2021/02/28	تاريخ القبول: 2021/06/24	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

يتلخص مضمون هذا المقال، في كيفية عمل آليات الحجاج البلاغية في النص النثري الأندلسي، من خلال زرزوريّة أبي القاسم بن أبي الجدّ كنموذج للدراسة، وقد تناولنا في الجانب النظري، النص النثري والحجاج وعلاقته بالبلاغة، كإطار عام للبحث، أما في الجانب التطبيقي فقد ركزنا على الآليات البلاغية التي استعملها الكاتب في رسالته، لنخلص إلى أهمّ النتائج التي نذكر منها: أن النص النثري القديم نصٌّ حِجاجي بامتياز، له أهداف ومقاصد سعى إليها الكاتب من أجل اقناع المتلقي والتأثير فيه، بالحجة والبرهان.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، النثر الأندلسي، الآليات البلاغية، الزرزوريات.

Abstract:

This article is about the ways the rhetorical mechanisms of the argumentation are used in the Andalusian prose , through the Zarzariyya of Abu al-Qasim bin Abi al-Jid as a study sample. The theoretical side of this study is about the argumentation in the prose and its relationship with rhetorics. While the practical side deals with the rhetorical mechanisms used by the author in his letter. We concluded with the most important results of this study such as: that the ancient prose text is an argumentative text, with

المؤلف المرسل: سالم حمامة salem0623@gmail.com

* جامعة تسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة hamama.salem@cuniv-tissemsilt.dz

♣ جامعة تسمسيلت، medfrenda54@gmail.com

goals and purposes that the writer sought in order to convince the receivers and influence them using clear evidence and proof.

***Key words**: argemontatics, Andalusian prose, rhetorical mechanisms,*

*** *** ***

مقدمة:

يُعدّ الحِجاج من أهم المواضيع التي اعتنت بها الدراسات الحديثة في مجال اللسانيات، باعتباره عنصرا هاما في تحليل النصوص الأدبية بفضل تقنياته وآلياته الخطابية، ذلك أن الكاتب أو الأديب يلجأ للحجة والاقناع في كلامه مع المتلقي للتأثير فيه ونصحه وارشاده للوصول للغرض المراد تحقيقه، وقد كان النص النثري من أهم مقاصد الحِجاج الذي شكل حلقة وصل بين شتى العلوم سواء البلاغة أو التداولية أو الفلسفة، وغيرها من الفنون والعلوم الأخرى، لأنه صار حقلا خصبا لتلاقح مختلف العلوم، من خلال إجراءاته وآلياته الحجاجية لتحليل النصوص، وهذا ما نجده في رسائل النثر الأندلسي، والتي سنحاول اختيار نموذج أبي القاسم بن أبي الجدّ من خلال رسالته الزرزورية وتطبيق الآليات الحِجاجية البلاغية عليها، ولقد تأسس البحث على إشكالية مهمة حاولنا الإجابة عنها، وهي:

ماهي أهم الآليات الحجاجية البلاغية في زرزورية بن أبي الجدّ؟ وكيف ساهمت في بناء النثر الأندلسي؟

2. النثر في الأدب الأندلسي:

جاء في لسان العرب: "النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نثر الحب إذا بذر"[1]،فمعنى النثر هو الشيء المبعثر والمتفرق بلا كيف ولا كم معينين، و في الاصطلاح النثر عكس الشعر، وهو الكلام الذي لا وزن له ولا قافية، وبمعنى آخر هو الكلام المسجوع، يقول شوقي ضيف: "النثر على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعني النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية .ويسميها بعض

الباحثين باسم النثر الفني، وهي تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة"[2]، أي أن النثر على نوعين: فالأول كلامنا العادي أو ما نتخاطب به يوميا وهذا بلا قيمة فنية، أما الثاني فهو الذي به فن ومهارة وإبداع بلاغي يجذب النقاد.

لقد كان النثر الأندلسي في بداية نشأته نثرا مشرقيا، سرعان ما تطور وازدهر وأصبح للأندلس أدبها الخاص، والذي تميز بأنه يجمع مزايا كثيرة لكونه هو اللقاء بين الشرق والغرب، بما فيه من الرصانة والجدة التي نراها في الموشحات والأزجال، والرومانسية التي كان رائدها ابن زيدون، والخفة والطرافة إلى جانب الجزالة والقوة، كما اهتمت بهذا الأدب كتب كثيرة، أهمها: كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام- وكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقري، وعشرات الكتب والدواوين والمطبوعات، ولقد تميز النثر الأندلسي عن النثر في المشرق بميزة الكتاب الشعراء والشعراء الكتاب على شاكلة ابن الخطيب وابن زيدون وابن الآبار وابن شهيد، ويرى عمر فروخ أن النثر الأندلسي به مسحة من الخيال ميزته عن النثر المشرقي، حيث يقول:" النثر الأندلسي في أسلوبه هو النثر المشرقي، لولا ذلك التطوح في الخيال أحيانا"[3]، فالنثر الأندلسي يمتاز بالخيال الإبداعي الذي يجعل الأديب هو عمود النص وأساسه، فتطورت لديهم ملكة الأداء الفني في أغلب الأجناس الأدبية بأنواعها، كالقصة، والرسائل الأدبية، والمقامات، والمحاورات، والرحلات.

3. الحجاج والبلاغة

1.3 مفهوم الحجاج:

الحجاج كما يعرفه الفيلسوف البلجيكي شايم بيرلمان هو: "دراسة التقنيات الخطابية التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[4]، ويعرفه عبد الله صولة بأنه " العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات، والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"[5]، فالحجاج استراتيجية مهمة وآلية لا تنفصل عن أي خطاب و لاسيما النصوص الأدبية، لأنها خطابات إقناعيه و أعمالا حوارية، يمكن للمتكلم بواسطتها اقامة علاقة تخاطبية مع جمهور متلقيه في مقام تواصلي معين، ويهدف عن طريقها إلى إقناعه والتأثير عليه من

خلال استخدام وسائط لغوية وآليات بلاغية بغية فض النزاع والتخاصم وحل الخلافات ودحضها بالحجاج والبراهين والأدلة.

2.3 الحجاج بين البلاغة والجدل:

البلاغة هي الوصول إلى الشيء، ومنه أخذت "البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللساني؛ لأنه يبلغ بها ما يريده"[6]، وبالنظر لجهود العلماء في تطوير علم البلاغة وتيسيره نجد البلاغة عند السكاكي(626ه): " هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"، أما عند القزويني(739ه)، فيقول " وأما بلاغة الكلام، فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"، أما عند الجاحظ(255ه): " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"، يلاحظ من خلال هذه المفاهيم أن الغاية من البلاغة هي في توصيل الكلام إلى قلب المخاطب والتأثير فيه، وهو ما يسمى بالإبلاغية في العصر الحديث[7]، فالغاية من البلاغة هي الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه واقناعه بما يطرح عليه من أطروحات وأفكار ودعاوى، أو توجيه سلوكه نحو مسلك معين أو دفعه لتجنبه.

أما مع بيرلمان، فقد أضحت البلاغة تغطي مجالات أخرى، يقول: "إذا كانت الخطابة تقدم لنا - عند القدماء- باعتبارها تقنية يستعملها العامي المتلهف إلى البلوغ السريع إلى الاستنتاجات، وتكوين رأي ما دون التمهيد لذلك بتحمل عناء البحث الجاد، فنحن لا نريد أن نقصر دراسة الحجاج على دراسة حجاج جمهور العوام"[8]، وبهذا أصبحت بلاغة الخطاب تهتم بكل خطاب يهدف إلى تفعيل دور المخاطب، بشرط أن يكون الخطاب بعيدا عن العلم والعقل المجرد، وعلى هذا الأساس ربط بيرلمان بين الجدل والبلاغة ضمن نظريته[9]، وقد مكنه ذلك من "إدراك الخيط الرفيع الجامع بين بلاغة أفلاطون وأرسطو من خلال المزاوجة بين الخطابة والجدل"[10]، يقول بيرلمان: "إننا لا نعتقد عكس ما ذهب إليه أفلاطون وأرسطو وكينتليان، وهم يحاولون أن يعثروا في البلاغة على استدلالات على شاكلة استدلالات المنطق، إن البلاغة هي مجرد شيء زائد وأقل يقينية، وإنها لا تتوجه إلا إلى السذج والجهلة"[11]، ثم يسترسل قائلا: "إن هناك مجالات هي مجالات الحجاج الديني، والحجاج التربوي والأخلاقي والفني والفلسفي والقانوني، حيث الحجاج هو بالضرورة بلاغي،

إن الاستدلالات الصائبة في المنطق الصوري لا يمكن تطبيقها في المجالات التي لا تتعلق بالأحكام الصورية الخالصة، ولا بالقضايا ذات محتوى يمكن الحسم فيه باللجوء إلى التجربة"[12]؛ يبين هذا الكلام محاولة بيرلمان تصحيح مسار البلاغة من جهة، و توسيع مجالها من جهة أخرى لتشمل عدة ميادين إنسانية، فتصبح بذلك البلاغة البيرلمانية "تغطي كل المساحة التي تمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب والفلسفة والعلوم القانونية والعلوم الإنسانية"[13]، فالبلاغة عند بيرلمان قد تشكلت وبرزت ملامحها جلية بعد الاستفادة من منتوج التراث القديم بكل أنواعه وأترابه، على شاكلة أرسطو وأفلاطون و غيرهم، فيما يتعلق بالجدل وعلاقته ببلاغة الخطاب والاقناع، ونتج ذلك مراجعة وتقويم البلاغة القديمة وفق منظور جديد سمي بالحجاج، فأطلق عليها مصطلح آخر هو "البلاغة الجديدة"[14]، لتتحول بذلك البلاغة إلى علم عام يهتم بالخطابات على أنواعها.

4. مقاربة حجاجية بلاغية لزرزورية أبي القاسم ابن أبي الجد

1.4 التعريف بالكاتب أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الكاتب الفقيه(496-586هـ)

ابن الجد أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى الفهري، الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، الفقيه، الخطيب، الأفوه، أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري، اللبلي، ثم الإشبيلي، المالكي، وكان كبير الشأن، انتهت إليه رئاسة الحفظ في الفتيا، وقدم للشورى من سنة إحدى وعشرين، وعظم جاهه، ونال دنيا عريضة، ولم يكن يدري فن الحديث، لكنه عالي الإسناد فيه، وكان أحد الفصحاء البلغاء، امتحن في كائنة لبلة، وقيد، وسجن، وكان فقيه عصره، تخرج به أئمة، مات: في شوال، سنة ست وثمانين وخمس مائة[15].

2.4 الزرزوريات:

هي مجموعة من الرسائل الأدبية عرفت طريقها إلى النثر الأندلسي لأول مرة في القرن الخامس الهجري، وهي إحدى عشرة رسالة كتبها سبعة كتاب أندلسيين، اتخذت من التودد، والشفاعة، والعتاب، والكدية أفقا، ومن السخرية الفكهة أداة[16]، وقد سميت الزرزوريات بهذا الاسم نسبة للزرزور[17]، وهو طائر صغير الحجم يشبه العصفور، يتميز بجمال صوته، وخفة حركته، وذكائه، وكذلك يتميز بنهمه الشديد، وإفراطه في حب الطعام[18]، وأول من ابتدعها أبو الحسين بن السراج[19]، الذي خاطب أهل عصره برسالة

يشفع فيها لرجل يعرف بالزَريزر، وتصوَره زرزور حقيقي له ريش ومنقار وفرخ وعش، ومن قوله :"... شخص من الطيور يعرف بالزريزر، أقام لدنيا أيام التحسير وزمان التبلغ بالشكير، فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عشوشه، أزمع عنا قطوعا وعلى ذلك الأفق اللدن تدليا ووقوعا، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرا، وعلى الغصون حبا وثمرة"[20]، وعارضه أبو القاسم بن الجد بثلاث رسائل في العتاب والشفاعة، كما عارضه عبد العزيز بن سعيد البطليوسي وابن أبي الخصال وغيره[21]، وقد كتب هؤلاء في فن النثر رسائل لها خصائص موضوعية للزَرزَرويات ذات سمات وأوصاف غاية في الفن الكتابي، مثل السجع والتضمين والرمزية والسخرية.

3.4 الآليات الحجاجية البلاغية في رسالة ابن أبي الجد:

كتب أبو القاسم بن أبي الجد زرزوريته عتاباً ومعارضة لرسالة ابن أبي السراج لما وصلته رسالة منه، فأبدع على منوالها أيما إبداع بعد التقاطه لفكرة الزرزور منها، فابتدئها بقوله: "حسنت لك يا سيدي أبا الحسين ضرائب الأيام، وتشوفت نحوك غرائب الكلام، واهتزت لمكاتبتك أعطاف الأقلام، وجادت على محلك ألطاف الغمام، وأشادت بفضلك ونبلك أصناف الأنام"[22]، ويختتم زرزوريته بطلب وده وعطفه، بقوله: "واقرأ على سيدي سلاما أعطر من مسك دارين، وأكثر من رمل يبرين، يحييه مع العشي شروقا، ومع النجم طروقا، والسلام المعاد الموصول، ما عضدت الفروع الأصول، وألفت الجفون النصول، على سيدي، ورحمة الله"[23]، وهو بين المقدمة والخاتمة قد أبدع بكلام بليغ وتعبير مجازي على لسان الزرزور بكلام ينسي القارئ أنه في الأصل كناية عن انسان حقيقي، ذلك أنه شحذ كل القرائن التي جعلت منه طائرا حقيقيا بتصرفات إنسان، والقارئ لهذه القطعة الأدبية الزرزورية موزع الذهن بين الطائر الإنسان والطائر الحقيقي، لأن الحديث يدور على مخلوق له هيئة الطير وشكله، وقريحة الإنسان وعقله[24]، فالكاتب أبدع وأجاد في رسالته بما استعمله من ملفوظات وصور بيانية وصفات شكلية وفنية، تحقيقا للهدف الذي أنشئت من أجله الرسالة الزرزورية وهو الشفاعة، وهذا ما نسعى لاستكشافه من خلال **المقاربة الحجاجية البلاغية لزرزورية أبي القاسم ابن أبي الجد.**

أ- حجاجية الكناية:

هي صورة بيانية تقوم الكلمة من خلالها كي تكون علامة لفكرة ما وظفت في مكان كلمة أخرى تعبر عن فكرة قريبة من الأولى، وقد عبر الإمام عبد القاهر الجرجاني عن هذا المعنى، فقال: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي إليه ويجعله دليلا عليه"[25] ، أي الإيحاء والإيماء لإثبات معنى من المعاني في اللغة باستعمال لفظ يراد به لازم معناه، كما عرفها ابن الأثير، فقال: "حد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة، والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"[26]، فاللفظة تدل على معنى جاز فيه الوجهين، الحقيقة والمجاز.

ومن حجاجية الكناية في مدونتنا، والتي تؤدي بالذهن إلى الاقتناع العقلي بالحقيقة التي يريد الباث إثباتها للمتلقي نبينها في الجدول الآتي:

الكناية	اللازم	الملزوم	الغرض الحجاجي
لحل الزمع حباه.	كناية عن صفة بمعنى: الزمع هو القلق أو شدة الخوف، وقيس بن عاصم صحابي جليل من بني تميم اشتهر بالحلم والأناة وقوة العقل، والاحتباء هو الجلوس على الإليتين مع شد الساقين إلى الفخذين بالذراعين أو بثوب.	ذهاب حلم قيس بن عاصم و وقاره عند سماعه ترنم وغناء هذا الطائر بذلك الكلام	شدة القوة عذوبة الصوت.
يحييه مع العشي شروقا، ومع النجم طروقا.	كناية عن صفة: فالوقت الذي يكون بين الشروق، والعشي هو النهار والوقت الذي يكون لما يطرق(يأتي) النجم هو الليل.	يسلم عليه عشية وابكارا وليلا ونهارا كعربون من المحبة	دوام المحبة.

نخب الموصلي للرشيد.	كناية عن صفة: فإبراهيم الموصلي من أكبر مغني الدولة العباسية في عهد الخليفة هارون الرشيد.	مختارات الموصلي من القصائد التي كان يتحف بها هذا الخليفة.	جودة الغناء وحسن الترنم وعذوبة صوته الشجي.
يحتسي قراحا نميرا.	كناية عن صفة: فالقراح هو الخالص والنمير هو الماء الطيب الحلو المذاق.	شرب أجود المياه العذبة.	أطيب وأحسن الماء.
هز قوادم الجناح لعادة (الاستمناح)	كناية عن صفة: هز مقدمة جناحية للاستمناح .	طلب المنحة أو العطية.	الاستجداء وطلب الحاجة.
فاستخفه هائج التذكار.	كناية عن صفة: فهائج التذكار هو الحزن أو الفرح.	الحنين والشوق.	غلبه حنين الذكريات إلى الأوكار السابقة
ويقيه شؤم الجابه والبارح.	كناية عن صفة: الجابه هو الذي يقابلك بما تكره، أما البارح فهو الذي جاء عن يمينك و ولاك بياسره.	يحميه من الظاهر والخفي من الأمور السيئة	يجنبه سيء الأمور وأقبحها.

سجعت على أيكه ورق الوفاء.	كناية عن موصوف: أيكه هو من طيور الحب أو طيور الشوق ومعروف إن مات أحدهما يمتنع الآخر عن الطعام والشراب إلى أن يموت.	الكاتب جانس بينه وبين الحبيب باستخدام اسم الآيك، الذي يدل على الشوق والحب. فإن	خلو المكان من الطيور، والتي ماتت واندثرت ولم تعد موجودة،

فهذه الكنايات المتزاحمة في النص، قد زادت بلاغتها في إبراز المعاني الحقيقية مصحوبة بدليلها، كما تضع المعاني في صور المحسنات وتبالغ في الوصف للتعبير عن المعاني غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق.

ب- حجاجية الاستعارة:

أضحت الاستعارة في نظرية الحجاج المعاصرة من أهم القراءات، التي ساهمت في تجاوز التصور التقليدي، الذي كان يراها مجرد محسن بلاغي فني، وظيفته تزيينية تنميقية، إلى اعتبارها حجة تقوم على تبيين الواقع، وضبط مشاهده، ومن هنا تغيرت الاستعارة من الشكل البلاغي أو الأسلوبي القديم، و أصبحت من أهم آليات الحجاج في جميع الخطابات، وهي من أجمل الأساليب البيانية وأرقها في المجاز الكلامي، تؤدي وظيفة خطابية لإيصال المعنى الحجاجي للمتلقي، حيث عرفها القاضي الجرجاني بقوله: "فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثر"[27]، بمعنى أنها من الأساليب التي يحتاجها المرسل لتزيين كلامه وتنميقه سواء أكان نثرا أو نظما لمحاججة المتلقي والتأثير فيه.

فالاستعارة ضرب من المجاز اللغوي، علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي[28]. أي أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه، وعرفها عبد القاهر الجرجاني، بقوله : "الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"[29]، ويذهب طه عبد الرحمان،

إلى أن عبد القاهر الجرجاني، هو المؤصل للنظرية الحجاجية في الاستعارة، متأثرا في ذلك بأساليب الحجاج التي عرفها المجال التداولي الإسلامي العربي آنذاك، ولعل مفاهيم مثل: "الادعاء"،و"الدعوى"، و"الإثبات"، و"الشاهد"، و"الاعتراض"، و"الاستدلال"، و"القياس"، من الأدوات المفهومية والإجرائية التي وظفها الجرجاني في درسه البلاغي عموما، والاستعاري خصوصا[30]، فعبد القاهر الجرجاني هو من أصل للنظرية الحجاجية بعد تأثره بما عرفه المجال التداولي من تطور في حجية الأساليب آنذاك.

يقول بيرلمان: "إن أي تصور للاستعارة لا يلقي الضوء على أهميتها في الحجاج لا يمكن أن يحظى بقبولنا"[31]، فأي كلام لا يرى بأن الاستعارة مهمة في الحجاج هو كلام ناقص لا نقر به، فالوظيفة الأساسية للاستعارة هي الإقناع والتأثير في المتلقي، لذلك يتوخاها المرسل (الباث) لتحقيق مراده المنشود وهذا ما نسعى لتأكيده في بعض النماذج الاستعارية من زرزورية أبي القاسم بن أبي الجد.

قامت رسالة أبي القاسم بن أبي الجد(المعروفة بالرسالة الزرزورية)، على آلية الاستعارة، والتي تجاوزت دورها الجمالي من الزينة والصنعة اللفظية، ذلك أنها عبرت عن أفكار الكاتب ورؤيته بقالب بياني من الإمتاع والإقناع، فصورت ما يريده الكاتب وما يرمي إليه من الاستعطاف والوصف وطلب العطاء لحاجته لذلك، بأسلوب هزلي مضحك على لسان زريزير بهيئة طير وشكله، وقريحة إنسان وعقله، وسنحاول تحليل بعض التراكيب الاستعارية الواردة في الرسالة، حيث نجد:

- الاستعطاف:

إن موضوع الرسالة كله استعطاف، نتيجة لحاجة الكاتب للعطف وحث سامعه للشفقة عليه، والنظر له بعين الرحمة والعطف، ويصور ابن الجد حال الزريزير، وحاجته للمساعدة والعون، فيصف متاعبه وصفا بين الضحك والهزل، لا يخلو من التهكم؛ ليرق له قلب مخاطبه، ويجود عليه بفضله، فيقول:"ولما طار ببلاد الغرب ووقع، و زقا[32] في أكنافها وصقع، وعاين ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمتون، أزمع عنها فرارا، ولم يجد بها قرارا، لأن هذا الثمر بهذا الأفق هو قوام معاشه، وملاك انتعاشه، إليه يقطع، وعليه يقع، كما يقع على العسل الذباب، وتقطع إلى العراد[33] الضباب، فاستخفه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار، حيث يكتسي ريشه حريرا، ويحتشي

جوفه بريرا، ويحتسي قراحا نميرا، ويغتدي على رهطه أميرا. فخذه إليك، نازلا لديك، ماثلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذباب في الروضة الغناء، وقد هز قوادم الجناح، لعادة الاستمناح.."[34]، يحاول الكاتب ابن الجد من خلال هذا الوصف المضحك الهزلي الساخر أن يشرح صدر المخاطب ويؤنسه بكلام منمق ومزين، ويسري عنه، لكي يعرض حاجة الشخص الذي أظهره على تلك الصورة المضحكة، ليحثه على البذل والعطاء، فيكون أكثر قبولا، وأبلغ تأثيرا لدى السامع، حتى يحن قلبه ويعطف عليه بما جادت به نفسه.

- **الوصف، وطلب العطاء:** يسعى ابن أبي الجد في رسالته بأسلوب وصفي هزلي ساخر، أن يصور حالته وهو يكتب رسالة يرد بها على رسالة الوزير أبي الحسن بن السراج، فيصف نفسه وهو يستعد لمكاتبته بغرائب الكلام وأعطاف الأقلام، إذ يقول:" وتشوفت نحوك غرائب الكلام، واهتزت لمكاتبتك أعطاف الأقلام"[35]، ثم يصف له وضعيته المزرية كأرض لم يصبها طل ولا وابل، ولم يغني بها طائر من الطيور الجميلة وهي راسخة ثابتة، لينتقل بعدها لصورة أخرى أكثر جمالا بما وقع عليه ونزل لديه من "طائر شهي الصفير مبني الاسم على التصغير"[36] غير حالته إلى أحسن حال فحرك مشاعره ودمث قلبه، وأسمعه لحنا جميلا وكلاما يسر القلب ويسمع قيس بن عاصم في ناديه، فرق قلبه وسلم أمره وشكر فضل صاحبه عليه.

ج- حجاجية التشبيه:

التشبيه، أسلوب بياني مهم ذو وظيفة تأثيرية إقناعية في السامع واستمالته لتغيير موقفه، ويعرف: بأنه "الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني، أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما"[37]، أي التشارك والتداخل بين شيئين في المعنى لغرض يهدف قائله للوصول إليه، وفي حجاجية التمثيل يرى بيرلمان بأنها: "طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا"[38]، بمعنى أنه رابطة بين صورتين تجعل من المتكلم يبين حجته ليحتج بها.

كما صرح الجرجاني بوظيفة التشبيه الحجاجية، التي قصد بها التأثير في نفس المتلقي، فقال: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها

منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا فإن كان مدحا، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف... وإن كان ذما، كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشده، وحده أحد إن كان حجابا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر"[39]، فهو يضفي على الصورة التشبيهية اهتماما بالغا منه، حيث تؤدي دورها الحجاجي التأثيري الذي يطبع الخطاب بسمة الإقناع.

ومن التشبيهات التي لها دلالتها الحجاجية في زرزورية أبي القاسم بن أبي الجد، نذكر:

(اهتزت لمكاتبتك أعطاف الأقلام)، الأعطاف هي الجوانب، وأضاف هذه الكلمة إلى الأقلام في الإسناد، وهذا أيضا يدخل في التشبيه البليغ لأنه صورة من صوره، حيث شبه القلم بشيء له جوانب وغرضه بيان إمكان وجود جوانب للأقلام تهتز.

(يقوم كالنصيح)، حيث شبه الزريزير(مشبه) بالنصيح(مشبه به) بأداة التشبيه الكاف، وحذف وجه الشبه وهو إرادة الخير للآخرين، كما أن النصيح هو المخلص في نصحه، وهذا النوع من التشبيه يسمى المرسل المجمل؛ فمرسل لأنه ذكرت فيه الأداة، ومجمل لأنه حذف منه وجه الشبه والغرض من هذا التشبيه، هو بيان إمكان المشبه بمعنى أن الكاتب ادعى إمكانية أن يكون طائر الزريزير نصيحا مبالغة في ذلك.

(يترنم بالثناء، ترنم الذباب في الروضة الغناء)، شبه ترنم (غناء) هذا الطائر بالثناء أي بمدح أبي الحسن، كترنم الذباب في الحديقة الجميلة، وهذا النوع من التشبيه يسمى التشبيه البليغ، لأنه حذفت منه الأداة ووجه الشبه، وهو أعلى رتبة في بلاغة التشبيه، وجاء هذا التشبيه على صورة المفعول المطلق(يترنم... ترنم)، فهو مبينا لنوع هذا الترنم، وغرضه بيان مقدار حاله.

ومن التشبيهات الوافرة في النص نذكر:

فإذا ما أراد كنت رشاء (يقصد أبا الحسن) رشاء، والرشاء هو حبل الدلو نوعه تشبيه بليغ، حيث صور أبا الحسن بأنه لو أراد الزريرير لكنت أنت الدلو القصير.

(اعترفت بسبقه اعتراف الخبير العليم)، نوعه تشبيه بليغ(مفعول مطلق).

(وبعد هذا الهزل العجاب، جد كالظلام المنجاب)، المنجاب بمعنى انقشع أو زال، نوعه تشبيه مرسل بليغ. فالتشبيه مبالغة في الوصف، لتوضيح المعنى وتمييزه بغية اقناع المتلقي والتأثير في بوجهة نظر معينة. فهذه الصور التشبيهية المبينة ذات طاقة حجاجية وبعد دلالي، لما لها من أثر على نفس السامع، فهي تنقلك بين الخيال والحقيقة، وبين الطرافة والجد، أتى بها الكاتب لتوضيح المعنى بغية الوصول للهدف، ذلك أن النفس تميل إليه، فيحدث في ذهن المتلقي إعجابا وإلهاما بما يسمعه، كما أن التشبيه يعد خطابا للعقل، ذلك أنه ينقله من الحال العادية إلى الحال التصديقية.

د- حجاجية الاستهلال:

يعتبر هذا الأسلوب في المحسنات الكلامية في بلاغتنا العربية ضمن طيات علم البديع[40]، وعرفه أبو البقاء العكبري والاسترابادي على أنه "رفع توهم يتولد من الكلام السابق رفعا شبيها بالاستثناء"[41]، أو إثبات ما يتوهم نفيه، شريطة إكساء صانع الحجة حجته المستدركة، التي أثبتها بثوب جديد سر السامعين، لكن المعني المستدرك ورفده بشيء من الظرافة البديعية اللطيفة المؤثرة في النفس[42]، وهو "ما يخرج من نفي الشيء إلى إثباته هو وغيره مبالغة"[43]، ومن هنا تنطلق وظيفة الاستدراك الحجاجية بالنقض والإثبات، وفي خضم ذلك فإن هذا النقض والرجوع عنه لا يعد غلطة، وإنما المراد بذلك "أنه أوهم الغلط وإن كان قاله عن عمد، إشارة إلى تأكد الإخبار بالثاني لأن الشيء المرجوع إليه يكون تحققه أشد"[44]، فضلا عن ذلك "لأن التناقض يقابل بين الفكرة وبين نقيضها"[45]، فيصبح المعنى المستدرك بديلا كلية ودليلا أقوى وأدل على سابقه، وبذلك يكون المرسل قد حقق الغلبة التي قصدها في توجيه قوله متداركا وخادمة للنتيجة المتوخاة[46]، وبهذا يمكن القول بأن حجاجية الاستدراك، هي دلالة على بطلان رأي وإثبات صحته، ومن أمثلة الاستهلال في مدونتنا "حسنت لك يا سيدي أبا الحسين ضرائب الأيام، وتشوفت نحوك غرائب الكلام، واهتزت لمكاتبتك أعطاف الأقلام، وجادت على محلك ألطاف الغمام، وأشادت بفضلك ونبلك أصناف الأنام..."[47].

يحتوي نص الرسالة على مقاصد حجاجية كثيرة ومتنوعة من ملفوظات(يا سيدي) نداء المراد منه لفت الانتباه، ونجد أيضا المتكلم المفرد في قوله:(حسنت، وتشوفت، نحوك، وجادت على محلك...)، استعمل هذه الملفوظات التي تحمل في دلالتها معنى الإفراد،

والتقرير، والتوجيه، والارشاد، مستعينا بذلك على ضمير المخاطب الكاف والتاء، كما زخرت الرسالة بالأدوات الشرطية(إن، لو، إن)، التي دلت على الحضور واليقظة والفطنة.

5. خاتمة:

وبعد هذه الرحلة العلمية الماتعة مع النص النثري الأندلسي "مقاربة حجاجية بلاغية لزرزورية ابن أبي الجد"، توصلنا إلى أهم النتائج التي نوجز بعضها في ما يلي:

-مصطلح الحجاج، مفهوم لا يمكن حصره، فقد ارتبط بالعديد من المصطلحات، وكثير من العلماء يعتبرها مفاهيم مرادفة له، إلا أنه يوجد من ينفي ذلك، نذكر منها (الجدل، الحوار، البرهان، المناظرة).

-الحجاج آلية بلاغية تداولية، يهدف إلى الاقناع والتأثير في المتلقي بالحُجة، والدليل، والبرهان.

-يعدُ النص النثري الأندلسي حقلا خصبا للممارسات البلاغية الحجاجية، بغية استكشاف بنياته الداخلية، وابراز الجانب الإبداعي له.

-إن الأساليب الحجاجية البلاغية، عناصر أساسية في العملية الإقناعية.

-الرسائل الزرزورية مليئة بالأساليب الحجاجية(الكناية، الاستعارة، التشبيه، الاستهلال) باعتبارها تقنيات تحوي جمالية وإبداعا، يسهم تجانسها وتداخلها زيادة قوة التأثير في المتلقي واستمالة موقفه.

-الرسائل الزرزورية نص نثري ساخر ومضحك على لسان طائر الزُريزير، ذات خصائص وسمات وأوصاف غاية في الفن الكتابي، مثل السجع، والتضمين، والرمزية، والسخرية.

5. الهوامش:

1 ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ط2، بيروت، 1992، مادة (نثر).

2 شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط12، القاهرة، ص15.

3 عمر فرخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1981، ص409.

4 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، دار الجنوب للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2011 ص13.

5 عبد الله صولة، المرجع السابق، ص68.

6 أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، دط، دت، ج1، ص301.

7 بن عيسى طاهر، تيسير البلاغة في كتب التراث، المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة، دط، الشارقة، دت، ص29.

8 Ch. Perelman et tyteca, Traité de L'argumentation,ed.université de Bruxelles ,2008, P9.

9 محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد40، العدد2، 2011، ص35.

10 محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، 2006، ص357.

11 محمد الولي، المرجع نفسه، ص357.

12 محمد الولي، المرجع نفسه، ص355.

13 محمد الولي، المرجع السابق، مدخل إلى الحجاج...، ص35/34.

14 فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، تر: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، ط1، مصر،2013، ص20.

15 ينظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الرسالة، ط3، 1985م، ج21، ص177 وما بعدها- وينظر: ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري، الدكتور حامد عبد المجيد، الدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، دط، بيروت، 1955، ج1، ص190.

16 ميدان أيمن، الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس؛ المتنبي والمعري نموذجين، دار الوفاء، دط، الاسكندرية، دت، ص194.

17 الزرزور طائر يقال أنه: ضرب من الغراب يسمى (الغداف)؛ ويقال: إنه (الزاغ)، وهو يقبل التعليم، ولا يرى إلا في أيام الربيع. ولونه أرقط لكن السواد أغلب. وقد يوجد في لونه الأبيض، وهو قليل جدا.

18 إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، دط، بيروت، ص86.

19 هو الوزير الكاتب أبو الحسين، سراج بن أبي مروان بن سراج، من أبرز علماء قرطبة في أيام المرابطين، توفي سنة 508هـ، ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام.

20 أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس، الدار العربية للكتاب، ط1، ليبيا - تونس، 1978، ج3، ص347.

21 عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس؛ موضوعاته وفنونه، جامعة كركوك، دط، العراق، 2010، ص141.

22 النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، 1423، ج10، ص242.

23 النويري، المصدر نفسه، ص244.

24 ينظر، علي بن محمد، النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج1، ص546/545.

25 عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية، دط، بيروت، دت، ص211.

26 عبد العزيز عتيق، المصدر نفسه، ص212.

27 عبد العزيز عتيق، المصدر نفسه، ص173.

28 عبد العزيز عتيق، المصدر نفسه، ص175.

29 عبد العزيز عتيق، المصدر السابق، ص175.

30 عبد الرزاق الفراوزي، التحول الدلالي في الاستعارة عواملها، شروطها، وظائفها، مجلة جيل الدراسات الادبية والفكرية، لبنان، العدد59، فيفري 2020، ص96.

31 ch Perlman et Olbrechts tyteca , Traité de l'argumentation.la nouvelle Rhétoriques. Paris.presses universitaires de France.1958.P535

32 زقا: صاح.

33 العراد: شجر صلب العود.

34 النويري، مصدر سابق، ص243.

35 النويري، المصدر نفسه، ص243.

36 النويري، المصدر السابق، ص244.

37 عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، ط1، دمشق، 1996، ج2، ص162.

38 عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، أفريقيا الشرق، دط، المغرب، 2006، ص97.

39 ينظر، عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، 2001م، ص85 وما بعدها.

40 أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات،ط1، بيروت، 2006، ج3، ص19.

41 أبو البقاء العبكري، الكليات، بولاق، دط، القاهرة، 1963، ص317.

42 ينظر، ابن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان،ط1، كربلاء، العراق، 1969، ص385.

43 ابن البناء المراكشي العددي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق: رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، دط، الدار البيضاء، 1995، ص97.

44 أحمد مطلوب، المرجع السابق، ص20.

45 محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، ط1، المغرب، 2005، ص29.

46 سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث،ط2، الأردن ، 2011، ص347.

47 النويري: المصدر السابق، ص243.